الرواية البوليسية كأداة للتفكير في مفاهيم العدالة و السلطة بين النموذج الكلاسيكي و النموذجالمابعد حداثي

The detective novel as a reflecting tool for concepts of justice and power: between the classical and the postmodern models

منال بن حميميد*
جامعة المسيلة (الجزائر)
zmanelbh34@gmail.com

سعاد عريوة
جامعة المسيلة (الجزائر)
souad.arioua@univ-msila.d

تاريخ الارسال:2025-08-29	تاريخ التقييم: 2025-10-31	تاريخ القبول: 2025-12-10

الملخص

بالرغم من تعدد القراءات التي توجهت للبحث في الجذور التاريخية للرواية البوليسية، واعتبار نشأتها نتاجًا لتحولات اجتماعية وفكرية وسياقات صناعية حديثة معتبرة ، إلا أنّها لاتختزل في كونها مجرّد لعبة ذهنية أو وسيلة ترفيهية لحل الألغاز،فالرواية البوليسية، بوصفها خطابًا أدبيًا، تُؤسس لعلاقة معقّدة بين مفاهيم السلطة والعدالة والحقيقة، وتُعيد مساءلتها عبر آليات سردية تتجاوز الإثارة الظاهرية نحو تعرية البنية العميقة للواقع . تهدف هذه الدراسة إلى تحليل كيفية تمثّل قطبي العدالة والسلطة داخل النص البوليسي الكلاسيكي والمابعد حداثي، من خلال تفكيك التوترات الكامنة بين القانون والأخلاق، بين المعلن والمضمر، وبين سلطة المؤسسة وسلطة الخطاب. وتبيّن أن الرواية البوليسية تُعدّ مرآة تعكس اختلالات الواقع، كما تمثّل فضاء نقديًا لإعادة التفكير في الوجود عبر الحبكة البوليسية ذات الطابع الإشكالي.

كلمات مفتاحية: بوليسية ؛كلاسيكي؛ عدالة ؛ما بعد الحداثة

Abstract

Albeit the numerous readings that have persued to trace the historical roots of the detective novel—considering its emergence as the product of significant social and intellectual transformations and modern industrial contexts—it cannot be reduced to merely an intellectual game or an entertaining means of puzzle solving,

but rather as a literary discourse. the detective novel establishes a complex relationship between the concepts of power, justice, and truth, seeking, through narrative mechanisms that go beyond suspense, to expose the deep structures of reality.

This study aims to analyze how both justice and power are represented within the classical detective text, and to inspect the dynamics of the tensions between law and morality, between the meaning produced by institutional authority and the authority of discourse. It shows that the detective novel has been a mirror reflecting the imbalances of reality, as well as a deconstructive space for rethinking existence through the problematic nature of the detective plot.

Keywords:Detective fiction; Classical; Justice; Post-justice

*المؤلف المراسل:

1.مقدمة:

لطالما ارتبطت القصة والرواية البوليسية بالجانب الترفيهي والتشويقي، الذي يضع القارئ في مضمار المغامرة الاستباقية، حيث يُستنفر ذهنه، وتُفعّل ملكاته العقلية، ويُشغّل آليات الاستنباط في محاولة لمجاراة عمل المحقق، سواء في استدلاله الاستنباطي أو الاستقرائي، وفي استخدامه للمنطق التحليلي، والذكاء الاستقصائي، والمهارات الاستنتاجية. هذا التحدي الذي يعايشه القارئ طيلة زمن القراءة، جعل الكثيرين يعتقدون أن الهدف الأساسي من هذا النوع الأدبي هو حلّ لغز الجريمة؛ تلك الجريمة التي تظهر في النص، تمامًا كما توجد في الواقع: إحداهما خيالية، والأخرى واقعية.

لكن، هل يتوقف الأمر عند هذا الحد؟ أم أنها تنطوي على قراءة نقدية لمفهومي العدالة والسلطة كما يتمثلان في الواقع؟

وكيف تشتغل آليات السرد البوليسي على مساءلة العلاقة بين القانون والأخلاق، بين سلطة النص وسلطة المؤسسة، وبين ما يُعلن وما يُخفى؟

ثم، إلى أي حد يمكن اعتبار الرواية البوليسية أداة فعّالة للتفكير في اختلالات النظام الاجتماعي من خلال تمثيلاته الرمزية والسردية للسلطة والعدالة؟

لم تعد الرواية البوليسية مجرد نص سردي يقوم على وجود جريمة وحلّها، بل تحوّلت إلى أداة تحليلية تُعيد التفكير في مفاهيم العدالة والسلطة، وتشريحًا مفهوميًا لممارسات الهيمنة وصياغة المعايير القانونية.وهذا ما ينسجم مع ما أشار إليه ميشال فوكو، في فهمه للخطاب باعتباره مجالًا تتقاطع فيه السلطة والمعرفة[1]. ونستحضر فوكو هنا لأن الرواية البوليسية تطرح أسئلة جوهرية حول من يتحكم في السرد، وفي العدالة، وفي المعنى القانوني داخل المجتمع: من يملك الحق في تعريف الجريمة؟ من يُحاسب من؟ هل الحقيقة دائمًا تحت سيطرة السلطة؟ وهل المحقق محايد فعلًا، أم يتحرك ضمن بنى سلطوية تؤطر موقعه؟ بناءً عليه، تفترض هذه الدراسة إمكانية وجود تعارض بنيوي بين العدالة كمبدأ أخلاقي، والعدالة كممارسة قانونية خاضعة لسلطة المؤسسات. ومن هنا، تتحول الرواية البوليسية إلى مجال حيوي لإثارة تساؤلات نقدية حول مشروعية القوانين، وحدود تمثيلها للحق، والحقيقة، والعدالة وعليه نهدف من خلال دراستنا إلى .

تحليل تمظهرات العدالة في الرواية البوليسية من خلال التمييز بين العدالة كقيمة أخلاقية قائمة على الإنصاف والمساواة، وتمثّلاتها القانونية كممارسة مؤسساتية بمعنى فهم الطريقة التي تكشف بها الرواية البوليسية التناقض بين الخطاب القانوني والمشاعر الأخلاقية الجماعية، خاصة في الحالات التي تُحل فيها الجريمة أخلاقيًا، بينما تظل العدالة القانونية غير مكتملة. إذ وفقًا للقوانين، يُعاقب الفرد على الجريمة بغضّ النظر عن دوافعه أو الظروف التي دفعته لارتكابهاواعتبارها أداة تطرح تساؤلات عميقة حول مفاهيم مثل الحق، العقاب، الخير، الشر، والحرية.إبراز الطابع النقدي للرواية البوليسية

2.جينولوجيا الرواية البوليسية، من الأصول التراثية ، إلى انبثاق النموذج الكلاسيكي إلى التفكيك المابعد حداثي

1.2 الأدب البوليسي في المخيال الشعبي و التراثي :

تُعد الفكرة البوليسية تمظهراً تخيلياً متجذّراً في الذاكرة الجماعية والأساطير الشعبية، وهو ما يدلّ على أنّ البذور الأولى لهذا النمط من السرد لم تكن مجرّد حكايات عفوية، بل كانت محملة بدلالات رمزية تتقاطع مع البُنى الثقافية والاجتماعية التي نشأت فيها. وفي هذا السياق نذكر أنه بعد اطلاعنا على الدراسات السابقة توصلنا إلى أنه يصعب تحديد نشأة دقيقة للأدب البوليسي بوصفه نوعا سردياً متماسكاً، إذ لم تتبلور معاييره الجمالية

والوظيفية إلا مع مطلع القرن العشرين. ورغم ما قدمته بعض المقاربات الأنثروبولوجية والثقافية"[2] من أرضية لفهم الجذور الرمزية والتاريخية لهذا الأدب، فإن هذه الدراسة تسعى إلى تجاوز الطرح التأسيسي نحو قراءة أكثر تركيباً، تقارب النص البوليسي بوصفه تمثيلاً معقداً للعلاقات بين العدالة والسلطة داخل السياقات الاجتماعية والسياسية المعيشة، حيث تتداخل البنى السردية مع أسئلة فلسفية حول الحقيقة، والمسؤولية، والمعيار الأخلاقي.

يبدأ الناقد عبد القادر شرشار في تحليله للرواية البوليسية من استثمار مباحث الناقد الفرنسي فرانسيس لاكسان(Francis Lacassin) ، حيث يؤكد على أن شخصية المحقق أوغوستدوبان(C. Auguste Dupin) ، المبتكرة من طرف إدغار آلان بو، لا تمثّل قطيعة تامة مع الماضي، بل توحي إلى امتداد سرديستعيد ملامح ومؤشرات كانت موجودة سابقا، تجلّت على نحو واضح في شخصية زاديغ، بطل رواية *Zadig*لفولتير .(François-Marie Arouet) وعبر تتبع ت تاريخي دقيق، توصل شرشار إلى أن إدغار آلان بو لم يبتكر الروح البوليسية من فراغ، بل استلهم مبادئها الأساسية، لا سيما الاستنتاج المنطقي والاستدلال الاستقرائي، من الإرث الفكري والسردي الذي سبقه، ومنه رواية *Zadig*التي جسّدت شخصية المحقق في صيغتها التأملية والفكرية."[3]فزاديك يمهد للبوليسية عن طريق إعمال العقل في فك ألغاز الأحداث و النزاعات بينما دوبان يستثمر هذا الإعمال في إطار جنائي محكم التنظيم

في هذا السياق، يُعدّ مشهد الجمل المفقود في *Zadig*مثالًا دالًا على هذا التأسيس المبكر؛ حيث يستنتج زاديغ، دون أن يرى الجمل، خصائصه التفصيلية انطلاقًا من آثار الأقدام وما تركه على الرمال"[4]. هذا المشهد لا يُعد محض خيال فلسفي، بل يُعيد إنتاج مشهد مشابه في قصة "الأمراء الثلاثة من سرنديب(The Three Princes of Serendip) "، وهي حكاية شرقية قديمة تدور حول رحلة ثلاثة أمراء يبرهنون على حكمتهم من خلال قدرتهم على الاستدلال المنطقي واستنتاج أوصاف الجمل المفقود من دلائل دقيقة. هذه البنية الحكائية، القائمة على الفطنة بدل المعاينة، توحي بأن الملامح الجوهرية للتحقيق البوليسي لم تكن غريبة عن الموروث السردي الشرقي.

يتجلى تأثر فولتير بالحكايات الشرقية في مستويات متعددة، ليس فقط من خلال مشهد الجمل، بل أيضًا عبر إعادة توظيف آليات رمزية عميقة موجودة في التراث ، وهنا لانقصد

التناص المباشر مع القصص التراثية و لكن من خلال التأثر بروح التحقيق الشرقية من خلال ملاحظة ردود الأفعال العاطفية والحدس و الحكمة فهو يستثمر هذه البنية التأويلية في *Zadig*،فالقصة التي يحكم فيها زاديك بين الأخوين المتنازعين حول الميراث في الفصل السابع المعنون بالوزير " [5] ليست محاكاة لحادثة مشابهة في التراث الشرقي ولكنها تعيد إنتاج الروح التراثية الشرقية في طريقة السرد و كيفية عرض النزاع القيمي، حيث يصبح تحليل السلوك الإنساني وتفكيك الظواهر الدقيقة أداة للوصول إلى الحقيقة، بعيدًا عن المسارات القانونية الصارمة و الحرفية . العدالة في هذه النماذج لا تُبنى على قوة القانون بل على حكمة العقل و التبصر ، وعلى اختبار البعد الأخلاقي وأثره في العلاقات والنوايا الإنسانية

لم يكن هدف فولتير، إذًا، إعادة سرد الحكايات الشرقية أو استنساخها ،بل فهم واستيعاب رموزها ودلالاتها وتحويلها إلى أدوات فكرية، تُسائل مفاهيم مركزية في الحياة العدالة، والسلطة، والظلم، والتمييز بين الحق والباطل. في *Zadig*، تتقاطع النزعة العقلانية ومشروع الأدباء التنويريين مع الإرث السردي الشرقي لتشكّل نمطًا سرديًا هجينًا، يستبطن الجريمة لا بوصفها فعلًا إجراميا فقط، بل كاشفًا للتوترات الإنسانية.

وفي هذا السياق، تبرز حكاية الليلة الثامنة عشر "الصبية والتفاح وريحان العبد " من *ألف ليلة وليلة* باعتبارها نموذجًا سرديًا يتضمن مقومات بوليسية واضحة. تدور الحكاية حول العثور على جثة امرأة داخل صندوق، وتكليف الوزير جعفر بالتحقيق في ملابسات الجريمة في ظرف زمني محدد. تتعقّد الحبكة تدريجيًا من خلال ظهور اعترافين متناقضين، قبل الوصول إلى الجاني الحقيقي. "[6]إن توظيف الجريمة، والتحقيق، وضيق الزمن، واستجواب الشهود وتحليل الملابسات، كلها عناصر تُحيل إلى بنية سردية قريبة من الرواية البوليسية، حتى وإن ظل السياق منفتحًا على أفق الحكمة والمفارقة أكثر من التشريعات الصارمة.

إن تسليط الضوء على هذه النماذج يُبرز أن ما يُعد ابتكارًا حداثيًا في الأدب الغربي يجد امتداداته العميقة في التراث الحكائي الشرقي، سواء من حيث البنية أو من حيث التصورات المرتبطة بالعدالة والحقيقة. ومن الضروري، في هذا السياق، التمييز بين "القصة البوليسية" كمصطلح أدبي محدّد الخصائص، وبين "القصة ذات الإيقاع البوليسي" التي قد

تتوافر على عناصر الجريمة والتحقيق والاستنتاج ضمن أنماط سردية مغايرة"[7]. إذ تمارس المجتمعات البشرية، عبر سردياتها المختلفة، أشكالًا متعددة من العدالة الرمزية، ما يجعل من الرواية البوليسية امتدادًا حديثًا لتقاليد حكائية أقدم، لا قطيعة معها..

2.2 من الرمزية إلى التأسيس: تشكّل الأدب البوليسي في السياق الغربي الحديث

يرتبط نشوء الأدب البوليسي في السياق الغربي بجملة من التحولات الاجتماعية والحضارية التي رافقت سيرورة التمدّن والتحضّر، ولا سيما مع تشكّل المدينة الحديثة بوصفها فضاءً مركبًا ومشحونًا بالتناقضات. فقد أفضى التوسع العمراني والزحف السكاني المتسارع إلى نشوء بيئة حضرية مكتظة; مركبة ، تتسم بالتوتر والانعزال، وتغذّي في الآن ذاته تفكك الروابط الاجتماعية التقليدية. وكان من مظاهرها ميل الأفراد إلى الانعزال وما سببه ذلك من تصدعات على مستوى فهم الذات و علاقتها بالوجود وفي هذا المناخ، بدأت مظاهر الجريمة والانحراف وظهور السلوكيات الهامشية من تعاطي المخدرات إلى العنف المديني تطفو على سطح الحياة اليومية، بما جعل المدينة بؤرة للارتياب والانكشاف الرمزي لخلل النظام الاجتماعي"[8].

وترافق هذا التحول مع نضج البنى الثقافية والإيديولوجية في الغرب، حيث أسهم صعود الفكر العقلاني، وتطور البنية الصناعية، وابتكارات التقنية الحديثة، في تكريس رؤية جديدة للعالم تقوم على الرصد والتحليل والتفكيك. ومن أبرز تجليات هذا التحول تأسيس جهاز الشرطة بوصفه تمثيلًا حديثًا ومؤسسيًا لفكرة "الشريف" القديمة، لكنه بات أكثر تخصصًا وتعقيدًا، إذ لا يُعنى فقط بمواجهة الجريمة، بل يُجسّد السلطة النظامية الساعية إلى ضبط النزوع الغريزي وإعادة إنتاج النظام"[9].

في ضوء هذه المعطيات، وجد الأدب البوليسي شروطه السردية المثالية: وسط حضاري معقد ، جريمة ملغزة ، شبكة علاقات اجتماعية تتسم بالاختلال و الارتباك ، وفرد في مواجهة مدينة مضطربة تتطلب تفكيكًا وتحقيقًا لا يقتصران على الحدث كيفيته ونتائجه ، بل يمتدان إلى البنية الاجتماعية نفسها. لقد وفر هذا السياق تأسيسا سرديا نمو يا للامتحان مفاهيم العدالة والنظام من خلال الحبكة البوليسية بوصفها أداة وآلية تأمل و تفكير وتحليل.

يُجمع كثير من النقاد على أن إدغار آلان بو (Edgar Allan Poe) هو الأب الحقيقي للقصة البوليسية إذا ما أُخذ هذا النوع الأدبي على محمل الجد، رغم المفارقة اللافتة في أن مبتكر هذا النمط الذي ارتبط لاحقًا بالخيال الأدبي البريطاني، هو كاتب أمريكي. غير أن هذا التناقض الظاهري لا يُنقص من فرادة بو، الذي يُعد من أبرز العقول الأدبية وأكثرها ابتكارًا في القرن التاسع عشر، بما تركه من إرث سردي غير مسبوق."[10]

ففي مجموعته القصصية المعروفة بـ (حكايات الغموض والخيال والرعب) **Tales of Mystery and Imagination**، نجد إرهاصات واضحة للعناصر التي ستصبح لاحقًا من سمات الرواية البوليسية. فقصة الحشرة الذهبية)**The Gold-Bug** على سبيل المثال، تُعتبر من أوائل النصوص التي تقوم حبكتها على حلّ شفرة سرية، حيث يُوظّف التحليل المنطقي في فك الكتابة المستترة و المشفرة كأداة للوصول إلى الكنز، ما يسبق زمنًا طويلًا ظهور الخيال البوليسي المنهجي.الذي يخضع لقواعد و قوانين خاصة

أما في قصة *أنت الرجل***Thou Art the Man**، فيتم توجيه أصابع الاتهام بشكل مفاجئ إلى شخصية لا تُثير أدنى شك حولها ، في بناء سردي يختبر قابلية القارئ للانخداع، ويعكس مهارة بو في تقويض التوقعات التقليدية حول الجاني. ومع ذلك، فإن الإسهام الأكثر بروزًا يتمثل في الحكايات الثلاث التي تدور حول شخصية المحقق) **C. Auguste Dupin***شيفالييه سي. أوغست دوبان*:وهي*جرائم شارع مورغ*) **TheMurders in the Rue Morgue**، و*لغز ماري روجيه***Mystery of Marie RogêtThe**،و*الرسالة المسروقة***The PurloinedLetter**

تقدم هذه القصص أول نموذج متكامل لشخصية المحقق العقلاني في الأدب العالمي، وتؤسس لما سيُعرف لاحقًا بالرواية البوليسية الكلاسيكية، بما فيها من تحليل منطقيعقلاني دقيق، وعلاقة معقّدة بين المحقق والسلطة الرسمية..لقد مهّد إدغار آلان بو الطريق أمام تطور الأدب البوليسي ليس فقط من خلال تقنياته السردية، بل عبر تحويل الجريمة إلى معضلة عقلية، ووضع المحقق في مركز الفعل التأويلي.لذلك يعتبر من مؤسسي النموذج الكلاسيكي البوليسي

ومن العلامات البارزة في هذا التشكل المبكر للنموذج البوليسي، روايةالجوهرة *The Moonstone*للكاتب البريطاني ويلكيكولينز(Wilkie Collins) ، التي اعتبرها ت. س. إليوت .T)

" (S. Eliotأول وأفضل رواية بوليسية" في تاريخ الأدب الإنجليزي. لا تستمد الرواية قيمتها فقط من سبقها الزمني، بل من بنائها الفني المتقن واعتمادها على تقنيات سردية رائدة، أبرزها تعدد الرواة، مما يمنح القارئ إمكانية تتبع القصة من زوايا متعددة، ويُضفي على الحبكة عمقًا وشبكة تأويلية معقدة"[11].

وقد أشارت دورثيسايرز (Dorothy Sayers) إلى أن الرواية تلتزم بمبدأ "الإنصاف السردي"، إذ أن جميع المفاتيح الأساسية لحل اللغز البوليسي مزروعة بدقة في الفصول الأولى، مما يفتح الباب أمام القارئ للمشاركة في فك اللغز، حتى وإن جاء الحل النهائي مخالفًا لتوقعاته أو ميوله. ومع ذلك، تظل النهاية عادلة ومتماسكة، وتحترم منطق التحقيق والتحليل.

أما شخصية المحقق، العريف كوف،(*SergeantCuff*) فقد استلهمها كولينز من شخصية حقيقية هي العريف ريتشارد روجر، أحد رجال الاستخبارات البريطانيين، ما أضفى على الرواية بعدًا واقعيًا، وسبقًا ملحوظًا في تقديم صورة "المحقق المحترف" قبل بلورة النموذج الكلاسيكي في صورته المعروفة لاحقًا. لقد مهّدت *الجوهرة* الطريق لظهور الرواية البوليسية الحديثة، بما تضمنته من حس عدلي، ودقة سردية، وإحكام منطقي لا يزال يثير الإعجاب حتى اليوم

يمثل النموذج الكلاسيكي أول بنية متكاملة ومنتظمة للرواية البوليسية، وقد بلغ نضجه على يد كتّاب بارزين مثل آرثر كونان دويل (Arthur Conan Doyle) من خلال شخصية *Sherlock Holmes*، وأغاثا كريستي (Agatha Christie) التي طوّرت هذا النموذج بأسلوبها الخاص عبر محققيها الشهيرين *Hercule Poirot*و .*Miss Marple*يقوم هذا النموذج على حبكة عقلانية دقيقة، تدور عادةً حول جريمة واحدة تقع في فضاء مغلق، مما يسمح بحصر عدد المشتبه بهم، حيث تقوم على الصراع الذي يتفاقم بسبب حدوث تصادم بين قوى مختلفة أ المصالح ،الأفكار ،الممتلكات ،النفوذ "[12]وتكثيف مسار التحقيق ضمن منطق استنتاجي صارم. وتُبنى الإثارة هنا على التدرج في الكشف، وتوزيع الأدلة بطريقة تجعل القارئ شريكًا افتراضيًا في فكّ اللغز، ضمن إطار سردي يحترم "الإنصاف"، دون أن يُفرّط في عنصري الغموض والمفاجأة.

3 .النموذج الكلاسيكي في الأدب البوليسي : مقاربة سردية في تمثيل العدالة والسلطة

تجسد رواية "جريمة في قطار الشرق السريع "***Murder on the Orient Express***، ***لأغاثا كريستي***

مبادئ الكتابة الكلاسيكية البوليسية ، حيث يمكننا ملاحظة الاعتماد الكلي على العقل في كشف الحقائق ، حيث لا يتوانى المحقق بوارو Hercule Poirot،على استخدام عقله و استغلال أي تفصيل ودمجه في عملية فهم وتحليل الحدث الذي تصفه أغاثا بالغريب ،تعتمد مباحث بوارو على الملاحظة الدقيقة وطرح الأسئلة الجزئية وتقديم الفرضيات و اختبارها ، حيث تركز اهتمامه على إعادة تمثل الجريمة واعتماد الشك " قال بوارومفكرا بعينين حالمتين :حقا ؟ ولكن هذا مايثير اهتمامي في هذه القضية ، فنحن محجوبون عن الإجراءات الروتينية التي تتبع عادة ، هل يقوم هؤلاء الناس الذين أخذنا إفادتهم الحقيقة أم أنهم كاذبون ؟ ليست لدينا وسيلة للتأكد من ذلك إلا مايمكن أن نبتكره نحن ، ن هذه القضية هي تمرين للعقل "[13]

يبين النموذج الكلاسيكي أن العدالة هي نتاج للتفكير العقلاني، ليس في إصدار الأحكام ولكن في طريقة الوصول إلى الحقيقة

يضع النموذج الكلاسيكي شخصية المحقق في مركز انبثاق السرد و تطوره ، حيث يعتبر الشخصية الأساسية التي تدور حولها الأحداث ، حينما تقع الجريمة فإن المهم هو ما سيلاحظه المحقق وما يفكر فيه وكيف وعن ماذا يتكلم ، لذلك يعكس المحقق مبادئ النموذج الكلاسيكي خاصة فيما يتعلق بالعقلانية و الذكاء الخارق .

ويتم في رواية " جريمة في قطار الشرق السريع " منذ البداية تقديم المحقق في صورة الرجل الأهم " لم يكن دوبوسك نفسه يعلم إلا أنه بلجيكي جليل الشأن ، ينتظره القائد الفرنسي بفارغ الصبر ، منذ أسبوع "[14] ، توحي عبارة الرجل الأهم إلى أن بوارو هو المنقذ المنتظر أو الحدث المفصلي الذي يراهن عليه الجميع، إذن من البداية يقدم بوارو كشخصية محورية كما لو أنه حدث في ذاته .

ومن المفارقة أن تنسب أغاثا محقق روايتها إلى بلجيكا رغم أنها بريطانية ه يدعونا هذا الاختيار السردي للتساؤل عن تموضعه الثقافي كأجنبي بين البريطانيين و الأمريكيين و الألمان و الفرنسيين ، إن تفسير هذا الاختيار يعود ربما لسببين أولهما إكساب المحقق صفة الحيادية للتحقيق في جريمة لا علاقة لها ببلجيكا، و الثاني إضفاء صفة الغرابة على شخصيته واستخدامه في كشف سلوكات وطبائع المنتمين إلى مجتمعات أخرى حيث يتعامل معهم بمبدأ الاكتشاف و التحفظ " ثم حول بوارو نظره إلى موائد الجانب الآخر من المركبة فرأى أمام إحداها سيدة ألمانية أو سويدية في مقتبل العمر ترتدي ثوبا أسود وقد فهم من قسمات وجهها ومظهرها أنها ربما كانت خادمة أو وصيفة "[15] يجسد هذا المقطع لحظة من لحظات الملاحظة عند المحقق و التي تمثل جزء من أدواته التحقيقية ، وهي تكشف عن براعة المحقق في اكتشاف السمات الثقافية و العرقية ،والتراوح بين الجنسيتين يولي إلى تريث المحقق و عدم التسرع في إصدار الأحكام أو الاعتداد بالنفس ،فهو يقوم بعملية استقراء نفسي و اجتماع بناء على مايلتقطه بصره من ملاحظات ودون الاستعانة بالآخرين في استنتاج السياق الطبقي و الوظيفي و استخدامه لكلمة "ربما"يشير إلى المرونة المعرفية .إن التركيز على وظيفة السيدة والطبقة التي تنتمي إليها تعكس كذلك خاصية مهمة في النموذج الكلاسيكي وهي علاقة الطبقة و الوظيفة بالنوايا و السلوك وعلاقة الشخصية بالجريمة .

يقوم النموذج الكلاسيكي كذلك على وجود جريمة مغلقة ، في مكان واحد وهذا ما نجده في الرواية ، حيث وقعت في مركبة من مركبات القطار ، تحديدا مركبات النوم ، الأمر الذي حدد للمحقق مجتمع التحقيق ، " بل حدثت أشياء ياصديقي هبوط الثلج أولا وعطل القطار ..والآن يوجد أحد المسافرين قتيلا في غرفته "[16] ،أثناء توقف القطار بسبب عاصفة ثلجية عثر على صاموئيل راتشيد وهو راكب أمريكي على متن القطار مقتولا بإثني عشر طعنه منها العميقة ومنها السطحية ، ليكتشف بوارو بعد عدة تحقيقات أن راتشيد ليس اسمه الحقيقي بل هو المجرم كاستي الذي تورط في اختطاف الطفلة ديزي أمسترونغ وقتلها ،حيث سبب هذه الجريمة أزمة كبيرة لعائلة ارمسترونغ ، انتحرت الأم ومات الأب حزنا وانتحرت الخادمة بسبب اتهامها كذلك

تستخدم أغاثا منذ بداية الرواية مؤشرات لفهم الجريمة عن طريق ملاحظات بوارو ،لنأخذ مثلا على ذلك " فسأل بوارو ألا تظن أنها جريمة فنية مدبرة ، فأجاب الطبيب لا أستطيع الحكم بأن

الجريمة مدبرة ولكنني أجزم بأنها غير فنية ، فالقاتل المحترف الذي حذق فنون الإجرام لايضرب ضربا عشوائيا ولايطعن يمينا وشمالا ..وقد خيل إلي حينما رأيت الجريمة أن القاتل أغمض عينيه وراح يطعن حيثما اتفق "[17] يكتشف بوارو بعد التحقيق أنها جريمة مركبة ومنظمة وأن كل ركاب القطار كانوا مرتبكين بعائلة امسترونغ ،وقد ططوا جميعا للركوب في القطار وقتل كاستي فكان عدد الطعنات بعدد القاتلين ، وأن ركاب القطار جميعهم قد خططوا لقتل كاسي كفعل جماعي لتحقيق العدالة

يقع بوارو هنا بين أمرين إما أن يقول بأن القاتل واحد ارتكب جريمته وهرب أو يقول الحقيقة ويعاقب الجميع ، ولكن اختار بوارو تحقيق العدالة بمنظور آخر فهو يتجاوز دوره في الوصول إلى الحقيقة و تحقيق القانون بل ينتصر للقيم و الأخلاق ولعدالة الضمير الجماعي ، حيث يعبر القتل الجماعي للمجرم عن صرخة أمام عجز القانون على تحقيق العدالة لذلك رغم معرفة بوارو بالحقيقة إلا أنه يختار أن لا يبلغ عنها ويقدم سردية بديلة تحمي الفاعلين وبذلك يتحول من ممثل عن السلطة القضائية إلى وسيط بين القانون و العدالة الأخلاقية فهو يعترف بشرعية العدالة الموازية البديلة حين يعجز القانون على رد الحقوق

تطوّرت الرواية البوليسية عبر مسارين سرديين رئيسيين شكّلا بنيتها الجمالية والفكرية: الأول هو **رواية اللغز(roman à énigme)** ، والثاني **الرواية السوداء .(roman noir)** يقوم المسار الأول، الذي مثّل النموذج الكلاسيكي، على سرد محكم تُطرح فيه الجريمة كلغز منطقي قابل للحل، حيث تنتهي القصة عادة بكشف الجاني واستعادة النظام، مما يمنح النص طابعًا أخلاقيًا واضحًا: فالمجرم يُعاقَب، والعدالة تُستعاد، ويُخَلَّص العالم من الشر، ولو على نحو رمزي.

4.ثلاثية نيويورك وتفكيك معنى العدالة و السلطة

في هذا السياق و قبلأن نتطرق إلى الرواية البوليسية الما بعد حداثية لابد من الإشارة إلى الرواية البوليسية السوداء، التي ازدهرت في الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين، وتحديدًا عقب الأزمة الاقتصادية الكبرى لعام 1929، فقد مثّلت قطيعة مع التصور الكلاسيكي . إذ نشأت في سياق تفاقم العنف الاجتماعي، وصعود الجريمة المنظمة، وتفكك

الثقة بالمؤسسات، فبدت العدالة فيها ملتبسة، والشر غير محصور في فرد يمكن إدانته. المال، والسلطة، والفساد، تحولت إلى ثالوث قاتم يهيمن على موضوعات الرواية، وشخصياتها، وأجوائها.

ظهرت شخصية "البطل المضاد (anti-hero) "بوصفها مرآة لهشاشة القيم الحديثة، فهو بطل صلب وقاسٍ، لا يتحرك بدافع المثالية، بل بدافع النجاة، أو نوع من العدالة الخاصة، التي قد تتقاطع مع القانون أو تعارضه. وفي هذا الإطار، لم تعد الرواية البوليسية مجرد نص ترفيهي شعبي كما شاع، بل اكتسبت طابعًا نقديًا عميقًا.

وقد أكد عالم الاجتماع والفيلسوف *فيليب كوركوف* (Philippe Corcuff)في كتابه *"Romans noirs, philosophie et critique sociale"* أن الرواية البوليسية، والرواية السوداء على وجه الخصوص، تُعدّان من بين أبرز أشكال التعبير السردي عن **النقد الاجتماعي الجذري** .فهي ليست مجرد بحث عن مجرم، بل وسيلة لطرح أسئلة فلسفية جوهرية حول معنى الحياة، وحدود العدالة، ومآلات الإنسان في عالم مضطرب."[18]

تنتمي رواية ثلاثية نيويورك جزيئا للرواية البوليسية السوداء ولكن سرعان ما تنزاح عن نمطها حيث لا توجد جريمة واضحة ولا مجرم محدد ولا غاية لإصلاح النظام الاجتماعي ،فتتحول إلى متاهة سردية تعكس ضياع الهوية و القلق الوجودي

إننا هنا أمام نص يطرح قضية جديدة على مستوى تجنيسه " ومع ذلك إن أصبح هذا الشكل أو أي شكل آخر منبع نوع جديد لروايات بوليسية ، فلن يكون ذلك حجة ضد التصنيف المقترح ، وكما ذكرت لا يولد النوع الجديد بالضرورة من نفس الملمح الرئيسي للنوع القديم ، بل من مجمّع مختلف من الخصائص ،دون أن يهتم بتشكيل مجموعة منسجمة منطقيا مع النوع الأول "[19]وقد ذكرنا الرواية البوليسية السوداء للتعبير عن لحظة تحول مهمة في مسار الرواية البوليسية ، فمنها بدأ التركيز على شخصية المحقق من جانب آخر مختلف عن المحقق في النموذج الكلاسيكي وهو الأمر الذي يوحي إلى مرونة النوع الأدبي مع احتفاظة بمظاهر انتمائه"[20]ليختلف أكثر في رواية ثلاثية نيويورك المابعد حداثية .

تتكون ثلاثية نيويورك New York Trilogyلبولأوستر Paul Auster من ثلاث روايات مرتبطة موضوعيا ،مدينة الزجاجCity of Glass،الأشباح Ghosts، الغرفة الموصدة The LockedRoom، روايات لا يوجد فيها محقق مركزي واحد ،فلكل رواية محققها أو من يدعيممارسة التحقيق ،وهو هنا يختلف عن المحقق في نموذجه الكلاسيكي ،فهو يفشل في استعادة النظام ويفقد توازن هو سرعان ما ينكفئ على نفسه وتبرز عليه ملامح السوداوية

لا ينتمي المحقق إلى مؤسسة رسمية تؤطر عمله، والتحقيق عبارة عن مهمة موكلة إليه تتخذ شكلا رمزيا وغير المباشر وفي مدينة مثل نيويورك التي تغدو مسرحا لجريمة غامضة مختلفة عن الجرائم الواقعية التي يتم فيها النيل من لأشخاص تقوم الرواية على حبكة غير قابلة للحل ،تراوغ فيها الدلائل ذهن المحقق بالطريقة التي لا تؤدي بها إلى كشف عن لغز الحدث بل إلى الدخول في متاهات و ضياع وتشظي

يركز أوستر على تفكك العدالة فيكونها ليست مفهوما يمكن إدراكه و الوصول إليه بل بحثا عبثيا عن الحقيقة وذلك بالنظر إلى طبيعة الأحداث التي يتم التحقيق فيها لأنها تركز على علاقة الذات بالوجود ،ففي مدينة الزجاج يقوم كاتب الروايات البوليسية كوين بانتحال شخصية المحقق بول أوستر -نفسه كاتب الرواية - حينما يتلقى اتصالا هاتفيا في منتصف الليل من الإبنستيلمان الذي يطلب منه مراقبة والده وحمايته من والده الذي سجنه وعزله لأغراض تجريبية مما أثر عليه وتسبب له في أزمات وصراعات نفسية مستعصية ، يقوم كوين بمراقبة الأب بعد خروجه من السجن بشكل مستمر لكن يجد نفسه غارقا في المراقبة و الشك حيث يفقد بوصلة التحقيق و عوض الوصول إلى الحقيقة يتحول كوين إلى شخص ضائع هائم في مدينة نيويورك .في سعي عبثي بلا وجهة في مدينة الحقيقة عنها غائبة .

فالرواية تبدأ كتحقيق لكنها تنتهي إلى تأمل في ضياع المعنى وفقدان الذات ، و هي هنا تعكس أحد أهم مقولات ما بعد الحداثة المتمثلة في لامركزية الذات فهي تشك في الذات العقلانية المتماسكة ، وتقدمها مجزأة مبعثرة وهشة .وتنقذ أحد أهم المبادئ الحداثية وهي العقلانية ، " لكل شيء سبب معقول... وماعلى الإنسان إلا التحول من متأمل للعالم إلى كاشف عن أسراره " [21]، لذلك سرعان ما تختفي ملامح القضية ، حيث تحضر الأسباب

وتتخذ النتائج مسارا آخر ، ويتحول التحقيق إلى رحلة لسبر أغوار الوجود ،ومن هنا يمكننا القول أنها تبدأ بوليسية وتنتهي فلسفية وجودية

في رواية الأشباح يستأجر "وايت" المحقق "بلو" ليراقب "بلاك" ويكلف بكتابة تقارير يومية عنه ، " وايت يريد من بلو أن يتتبع رجلا يدعى بلاك ، ويواصل رصده وقد بينت عمليات المراقبة أن بلاك لايفعل شيئا من غير القراءة والكتابة ، مما أدى ببلو إلى فقدان الإحساس بالذات و الوقت و الغاية ، " [22]وهكذا ينقضي باقي اليوم و بلاك عاكف على القراءة وبلو على مراقبته وهو يقرأ ومع مضي الوقت يزداد تثبيط همة بلو فهو ليس معتادا على الجلوس على هذا النحو ، ..الآن يبدأ ذلك في الإثقال على أعصابه ..وكان يقول لبراون عندما يعهد إليه بمهمة سكونية ..نني لست من طراز شرلوك هولمز أعطني شيئا يمكنني أن أغرس فيه أسناني "[23] يقع المحقق هنا كضحية للسكون حيث تحولت المراقبة إلى تعذيب وجودي ومع مرور الوقت يتداعي إلى ذهن بلو أن بلاك يراقبه أو يعكس جزءا منه ، لتتحول الرواية إلى لعبة مراقبة تضمحل فيها عملية التحقيق وتغيب عنها الجريمة.

يجسد هذا المقطع انهيار نموذج "شرلوكهولمز" المحقق الذي كان يصنع الحدث ويكشف الحقيقة في روايات وقصص آرثر كونان دويل أواخر القرن التاسع عشر ، بينما "بلو" جالس لا يحرك ساكنا فرغبته في غرس أسنانه تعبر عن توقه إلى الحدث و الصراع ،

وبالنظر إلى أسماء شخصيات الرواية نجد أن ""أوستر قد استخدم الألوان ولا شك في أن لهذا الاختيار أغراضه الرمزية حيث جرد الشخصيات من فردانيتها فجعلها واجهة للتعبير عن وظائف سردية أكثر من كونها ذواتا، فالهوية غير ثابتة و العدالة لا تتحقق على أشخاص ثابتين بل على ظلال من المعنى .

الأبيض ، النقاء، الأسود الحقيقة المحجوبة واللاوعي ، الأزرق الحيادية ،المراقبة والوعي الممزق

يظهر الملمح البوليسي في مدينة الأشباح في اعتماد الطابع البوليسي من خلال وجود تحقيق حول شخصية في شكل مهمة تعتمد على التجسس و المراقبة ، لكن تتحول إلى غاية في حد ذاتها ،وتنقلب أدوار السلطة ومفهوم العدالة ، حيث يغدو "بلو" سجينا لمهمته، وتتفكك الرواية مبدأ العدالة فتعكسه كنظام شكلي بلا فاعلية يسعى إليها في ظل غياب الحقيقة وفي ظل سلطة وهيمنة مبهمة و يمثلها "وايت" فالعدالة هنا لا تطبق باعتبارها مرجعية أخلاقية بل كنتيجة حتمية لمنظومة رقابة لا تملك نهاية .

تكشف الغرفة الموصدة من جهة أخرى على تحول التحقيق إلى فعل مكرر متعفن ،حيث ليس للسلطة المعرفية قدرة على إنتاج الحقيقة بل تضمحل تحت وطأة الرتابة وتتحول إلى طقس متابعة ضائعة في مشهد يكشف فراغ السلطة و تراجع النموذج البوليسي الكلاسيكي في الغرفة الموصدة تتحول الحبكة من البحث عن صديق مختفي إلى جريمة يرتكبها في حق نفسه وهي العيش في ظل صديقه مغتصبا لحياة لا تخصه، حيث تتقدم زوجة فانشو بعد اختفاء زوجها ،بطلب مراجعة كتابات زوجها ونشر مخطوطاته ،باعتباره رفيق صبا زوجها ولكن بعد قراءة ما كتبه يجد الراوي أنه أمام عبقرية فذة في التأليف فينشر كتاباته ثم يتزوج صوفيا فانشو ويتبنى ابن صديقة ولكنه لم يستطع التخلص من هاجسه فيبدأ في رحلة لكتابة السيرة الذاتية لفانشو ثم يتراجع في النهاية ويحضر لعملية انتحار صديقه دون أن يمتلك أي قدرة على تغيير مجرى الأحداث .

والرواية هنا تستبدل الجريمة التقليدية بفعل الغياب و الاختفاء والغرفة الموصدة ليست تعبيرا عن مكان مغلق فقط بل عن ذات محجوبة عن الآخر.

من بين الأسئلة الجوهرية التي تثير حيرة القارئ لأي سبب اختفى فانشوا، هل يرفض الشهرة ، أم دليل على عبث الوجود أو تمكين لصديق أو تفكك في الهوية ؟ أم أنهسلطة موازية لسلطة الكاتب

تتخذ السلطة في الغرفة الموصدة شكلا آخر فهي ليست مؤسساتية فقط بل سلطة لغوية و سردية فالمعنى غير ثابت و الحقيقة متشظية،والجريمة استعارة لفقدان المعنى في عالم ما بعد حداثي حيث العدالة وهم بنيوي و السلطة تتوزع على مستويات غير مألوفة ، تعكس هذه الرواية مفهوما مغايرا للعدالة فهي لا تحقق من خلال اكتشاف الحقيقة وعقاب الأفراد ، بل قد تحقق أو يتم إلغاؤها من خلال القرارات التي يتخذها الأفراد فهي مفهوم وقرار شخصي ، فالعدالة تحقق حينما تظهر الحقيقة و يعاقب مرتكب الجريمة لكنها تتخذ مفهوما مغايرا في هذه الرواية فاختفاء فانشو يحول الانسحاب إلى طريقة في الاحتجاج وتحقيقا لعدالة ذاتية

أما مفهوم السلطة فإنه يتخذ شكله غير التقليدي كما سبق ذكره ، فهي لاتمارس عبر أجهزة ومؤسسات تفرض القوانين و العقوبات ، بل عبر فعل السرد و السيطرة على الحكاية و الذاكرة ، حيث يستلم السارد زمام السيطرة الرمزية و يوجه نظر القارئ إلى الكيفية التي ينظر بها إلى فانشو ، في الوقت الذي يتمسك فانشو بسلطته كذلك و عدالته عبر فعل الغياب والحضور و الكتابة من هنا تصبح السلطة ذات معنى أخر هي تحديدا سلطة لغوية

وسردية تنفرد بها الشخصيات في التعبير عن ذواتهم والآخرين مايوحي إلى أن السلطة كما وصفها فوكو لاتمارس فقط من الأعلى بل تتغلغل في أبنية الخطاب و العلاقات اليومية .

خاتمة

يتبين من خلال هذه الدراسة أن الرواية البوليسية أداة ناجعة لتفكيك مفاهيم العدالة و السلطة ، ففي الوقت الذي عكس فيه النموذج الكلاسيكي صورة العدالة التي يتم التوصل إليها بالعقل و المنطقو الضمير أبان النموذج التفكيك يما بعد حداثي مالسوداوي كذلك هشاشتها في مجتمع فوضوي يغيب عنه النظام والأمان ، فهي تفكك مفهوم العدالة بناء على علاقة الانسان بالوجود حيث تغيب الحقيقة و تتأزم الذات أمام تصدع عملية فهم وجودها

حيث توجه الاهتمام إلة مساءلة من يملك الحقيقة ، وكيف تمارس السلطة ، وبناء على ذلك يمكن تحديد النتائج الآتية :

1) أظهرت الدراسة أن الرواية البوليسية ليست لعبة سردية متخيلة يتم فيها استعراض المهارات العقلية و المنطقية بل فضاء تفكك من خلاله مفاهيم السلطة و العدالة

2) إن تطور النماذج البوليسية يدل على تحول واختلاف تصورات الإنسان حول العدالة

3)تحول المحقق من شخص خارق الذكاء مالك للحقيقة إلى شخصية مضطربة قلقة وضائعة

4) ابتعدت الجريمة عن كونها لغزا يتطلب حلا منطقيا وتحولها إلى مرآة تعكس اضطراب الذات و الواقع

5) تحولت الرواية البوليسية إلى أداة لتفكيك العلاقة بين القانون و الأخلاق

6) تبنت الرواية البوليسية أزمة المعنى في العصر الحديث

7) اتساع مفهوم السلطة في الرواية البوليسية وانتقاله من السلطة المحسوسة ، سلطة الشرطة مثلا إلى السلطة المعنوية ، سلطة الخطاب و المعنى و السرد والهوية .

[1]ينظر:فوكو،ميشال،1994،المعرفة و السلطة ،تر: عبد العزيز العيادي ،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ،بيروت، ص :11.

[2]ينظر شرشار عبد القادر ،2003،الرواية البوليسية ،منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ،ص،36.

[3]المرجع نفسه ،ص،37.

[4]ينظر ،فولتير ،2006، زديك أو القضاء ،تر: طه حسين ،آفاق علمية ،القاهرة،ص،42،43،44

ينظر ، المرجع نفسه ،ص،64،65[5]

[6]ينظر:ألف ليلة و ليلة ،2022،مؤسسة هنداوي ، لندن ،ص،113،116.

[7]مؤدن عبد الرحيم ،2009،القصة البوليسية في الأدب المغربي الحديث، فصول ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر العدد 76،ص،83

[8]ينظر شرشار عبد القادر ،2003،الرواية البوليسية،ص،103،104

[9]ينظر،مؤدن عبد الرحيم ،2009،القصة البوليسية في الأدب المغربي الحديث،ص،75

[10]ينظر:جوليان سيمونز،2015،القصة البوليسية تاريخها و قواعدها وتقنياتها ،تر، علي القاسمي ،منشورات الزمن ،المغرب،ص،44،45

[11]المرجع نفسه ،ص48

[12]ينظر، جمال ،الدين ، العزيزي، نورية ، شرقي ،خصائص بناء الحبكة في الفيلم الأمريكي – المدرسة الأمريكية أنموذجا ،مجلة النص ، الجزائر، 2022م،09،ع،02،ص،288

[13]أغاثا كريستي ، ،(د ت)،جريمة في قطار الشرق السريع ، دار النجمة ،ص، 100

[14]المصدر نفسه،ص،05

[15]المصدر نفسه،ص،21

[16]المصدر نفسه،ص،33

[17]المصدر نفسه ،ص،36

[18]بركات ،نجوى ،2017،الرواية البوليسية من منظار الفلسفة وعلم الاجتماع ،الشارقة الثقافية،،الشارقة،ع11،ص،78

[19]تودوروف ،تزفيتان ،2011،شعرية النثر ،تر،عدنان محمود محمد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ،دمشق،ص،20

[20]ينظر،خليفة ،عوشاش،2022،تبادل السمات الأجناسية بين رواية السارد العليم و المونودراما، مجلة النص، الجزائر، ع02، م ،09،ص،444

[21] مهنانة ،إسماعيل ،2012،الوجود و الحداثة ، الدار العربية للعلوم ،بيروت،ص:85

[22]ينظر أوستر ، بول ،1993 ، ثلاثية نيويورك،تر:يوسف حسين كامل ،دار الآداب ، بيروت ،ص،231

[23]المصدر نفسه ، ص، 238